حول المجموعة القصصية "الأرض المشتعلة" لِـ"سحر ملص"

د. سليمان الأزرعي/ الأردن

منذ سنوات، كتبتُ دراسة نقدية حول أعمال أدبية عربية ظهرت في أثناء الحروب، وأعمال أدبية ظهرت في أعقاب الحروب، وتوصّلتُ إلى أنَّ الأعمال التي تظهر في العادة في غمرة الحروب والتحديات القومية تبدو غاضبة وانفعالية أكثر من اللازم، وربما شتائمية، ذلك أنها لا تنطوي على عمق إنساني أو تعبيري عميق، بل إنها لا تعدو في غالبيتها أن تكون أكثر من هجائية ضد الحرب وصانعيها وأنظمتها المعتدية؛ وهي بالطبع هجائيات لا يُستغنى عنها في غمرة الحروب والاجتياحات، لكنها لا تحقق تلك الإنجازات الإبداعية التي تعقب الحروب وتحتل مكانتها كإبداعات استثنائية مميزة، كما هي إبداعات ما بعد الحروب التي شهدتها البشرية، بما حملته من ويلات وحقارات ما انفكت تصم جبين البشرية بوصمة العار.

ويتابع المثقف والمبدع العربي منذ نهايات القرن المنصرم وإلى اليوم كل الحقارات التي شهدتها العراق وليبيا وسوريا واليمن وغيرها، ويحاول أن يتوازى معها بالكتابة. لكن ما كُتب لا يشكل إنتاجًا لائقًا بحجم تحديات المرحلة للإنسان والأرض-الوطن.

ومن المعروف أنّ الأعمال الإبداعية الكبرى التي ظهرت في أعقاب الحربين العالميتين كانت أهم بكثير من الأعمال التي توازت مع الحروب لأنها لا تخلو من انحدار أو تبسيط أو إسفاف أو شتائمية؛ كما قلنا.

فالأفلام العظيمة والروايات العظيمة والشعر العظيم والمسرح العظيم ظهرت بعد الحروب وكذلك الفكر والفلسفة العظيمة.

مجموعة "الأرض المشتعلة" لِـ"سحر ملص" كُتبت في ما يبدو في غمرة الأحداث الدامية التي

شهدتها سورية، وتشكل قصص المجموعة بطاقات حمراء ترفع في وجه الحرب، دون أن يكون شاغلها إدانة هذه الجهة أو تلك سياسيًا.. ولو جاءت كذلك لأدخلناها في باب كتابات الرغاء والـ"هوبرة" التي تواكب الحروب... لكنها جاءت لعنة ضد الحرب ونداءات مبحوحة لاستغاثة الإنسان الواقع تحت ضغط طواحينها التي تهرس الأجساد والأرواح وكذلك النبات والحجر والتاريخ والجغرافية -وبالطبع- المستقبل بعيدًا عن الشاغل السياسي وقصدية الإدانة.

إذن، فماذا تبقّى للكاتبة من أدوات تعبيرية يمكن أن ترفعها في وجه الحرب بعد أن تخلّت أو تخفّفت من الشاغل السياسي؟

وما دام الأمر مع هذه المجموعة القصصية أنها لا تشكل منظومة أو مشروعًا رؤيويًا إبداعيًا، فالأمر الطبيعي أن تأتي هذه القصص على شكل لهاث متقطع يشكل كل عمل فيها نَفَسًا مستقلًا، ولكنّها -أي القصص- تشكل حبات في خيط مسبحة قائمة على التجريب والمغامرة الفنية والرومانسية والسوريالية... وسنأتي على هذه الإحداثيات تاليًا...

لأول مرة تكتب سحر ملص (القصص القصيرة جدًا) كما ثبّتت ذلك على الغلاف الداخلي للكتاب، وهي بنظرنا قصص قصيرة جدًا وأنفاس متقطعة -كما أشرنا- كل نفس منها قصة تسجل لقطة إنسانية من لقطات الوجع الإنساني؛ وهي لقطات خاطفة... ولكنها عميقة ومؤثرة، ولا ينتبه لها المتلقي إن لم يكن لديه جاهزية لالتقاط الموضوعات المتحصلة من حساسية المبدع... وعلى سبيل المثال يتكرر نموذج القطة في أكثر من قصة (مواء) و(مواء آخر) و(نهر الدم) و(أرجوحة) وغيرها وغيرها... وهي تارة ترتبط بالبيت المهجور، وبالشارع وبالحقائب تارة أخرى، كأنّما يرمز هذا الرمز (القطة) إلى الإنسان المقموع والمنتهك والمهروس بآلة الحرب والاقتتال.

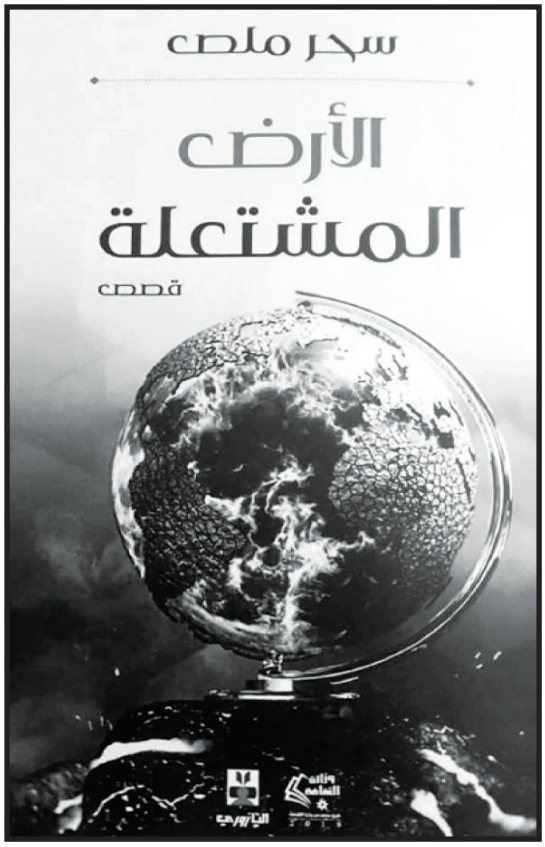

وتتوالى هذه الصيحات ضدّ الحرب عبر قصص المجموعة وبأشكال تعبيرية متناثرة أخرى. ولكنها في مجموعها تظل صيحة مدوية ضد الموت والحرب والاقتتال، وهذا ما يجعلها قصصًا قصيرةً (جدًا) كما أسمتها الكاتبة، لكنها ذات موضوع واحد.

أمّا في ما يتعلق بكونها قصصًا (قصيرة جدًا)، فالأمر بحاجة إلى التوضيح، إذ بمقدور الناقد أن يشير إلى أكثر من قصة كانت تتفلت من بين يدي الكاتبة لتستحيل إلى قصة تقليدية قصيرة مكتملة، لا ينقصها سوى التسمية الجريئة، ووسمها باسمها (قصة قصيرة)، لكن الكاتبة قد ألزمت نفسها بالتسمية (قصيرة جدًا) وهذا الموقف الخاص بالكاتبة حرمها من استكمال عدد من القصص فيما لو كانت تكتب على سجيّتها. وهذا الأمر يمكن البرهنة عليه في العديد من المواقع... لكن الكاتبة ظلت أسيرة للمقولة التي أعلنتها في مجموعتها (قصص قصيرة جدًا) وما استتبعها من استحقاقات لهذا العنوان المعلن، وهو عنصر(التجريب)، فالتجريب مقترن بهذا النوع من الكتابة، وهذا استطراد نقدي آخر.

بقي علينا الإشارة إلى لغة الكتابة وهي لغة إنشائية تعبيرية راقية تذكرني بكتابات جبران خليل جبران في كثير من المواقع، الأمر الذي يفتح الآفاق أمام الكاتبة لتوظيف الخيال والعاطفة الطاغية، ويفضي كذلك إلى الأمر الآخر وهو الأهم، إذ غالبًا ما تندفع القصة بسبب تلك التأثيرات الفنية إلى السلوك الفني السوريالي كخيار تنتخبه الكاتبة لحسم خواتيم قصصها التي توشك على الخروج من عنوان (القصة القصيرة جدًا) واستكمال نفسها فنيًّا وإنشائيًّا وذلك عبر الخيالات السوريالية كما هي الحال في قصة "عروسان"(ص67،68) وكذلك قصة "رجولة"(ص76) و"وجه وحيد"(ص78،79)، إضافة إلى قصة "عيد الحب"(ص81،82،83).

بقي أنْ أشير إلى أنَّ هذه المجموعة لا تخلو من قلقها الوجودي؛ وبالتعين- قلق المرأة الذي يحتاج منا إلى وقفة مستقلة ستطول –ربما- بما يمكن أن يغرق هذه الدراسة بمحور سيضيع قصديّة إشهار هذه المجموعة الجديدة ■